



عبد الله الشحي

نظرة في الاستشراق الألماني

يناقش الكاتب رضوان السيد في مقالته «تأثيرات المستشرقين الألمان» مفهوم الاستشراق وإسهاماته والحملات ضده، ثم يتناول المستشرقين والأعمال الاستشراقية الألمانية وي طرح نماذج منها ويوضح تأثيرها. وينتقل ليعلل سبب ضعف تأثيرها في الوقت الحاضر. شكلت الثقافة العربية والإسلامية محل اهتمام من قبل العالم الغربي، تمثل ذلك في بروز أسماء لباحثين عملوا على تناول البنى الثقافية العربية - الدين والأدب واللغة - بالدراسة والتحليل، سمي ذلك الفرع من البحث بالاستشراق. جاء المستشرقون من جنسيات مختلفة مثل بريطانيا وألمانيا وفرنسا وغيرها، وربما يكون في ذلك إشارة إلى أهمية الاستشراق بالنسبة للغرب بحيث اشتغل فيه أشخاص من مختلف الجنسيات وخلال عقود طويلة من الزمن. تباينت أعمال المستشرقين في وصولها وتأثيرها للوطن العربي، والسبب في ذلك أساساً هو الترجمة، حيث إن ما لم يترجم منها لم يصل غالباً حتى يتسنى للعرب نقده والاستفادة منه. بيد أن ما ترجم منها وحده دليل كافٍ على مدى الإسهام البالغ الذي أحدثه الألمان في الدراسات الاستشراقية.



بما أن الاستشراق عمل أجنبي فمن الطبيعي أن تتنوع ردات الفعل عليه بين القبول والرفض، وخاصة أن بعض تلك الأعمال بعيد عن الموضوعية والواقع وينم عن جهل واضح، لكن الكثير من أعمالهم من الممكن الاستفادة منها، وعلى غرار إدوارد سعيد الذي اعتبر الاستشراق نظرة متعالية من الغرب للعرب، فإن مجموعة من المفكرين مثل الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف اعتبروا دراسات المستشرقين إضافة مثرية إن نحن أعطيناها الفرصة المناسبة. ومن الممكن القول بأن من الإنصاف عدم اتهام الاستشراق بالرغبة في الهدم والعمالة، نظراً إلى أن بعض المستشرقين يعتبرون الثقافة العربية ثقافة عالمية لا ثقافة وتختلف بالضرورة كما هو سائد بين كثير من الناس، وإيصال صورة سليمة عن المسلمين للغرب يعتبر مطلباً ضرورياً من مطالب العصر الحالي حسب ما أتصور.

يذكر الكاتب نماذج من أعمال المستشرقين الألمان على رأسهم يوليوس فلهاوزن لمقالته الدولة العربية وسقوطها، ويعتبر يوليوس باحثاً بارزاً في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والتاريخ العربي. فلهاوزن كان يستقي معلوماته من المصادر العربية مباشرة، وهذا جعل أعماله تنزع للموضوعية بشكل كبير، خلافاً لمجموعة أخرى من المستشرقين الذين كانوا يستقون معلوماتهم من أعمال من سبقوهم مما جعل أطروحاتهم بعيدة عن الموضوعية إلى حد ما، وهذا من المرجح أن يكون سبباً مهماً لجعل باحث كهذا مفضلاً لدى كثير من الدارسين، بالإضافة لافتراضه أن الإشكالية الرئيسية في الدولة العربية الأولى، إشكالية ذات طابع قومي، مما أعجب القوميون العرب في فترة الخمسينيات.

وعلى حد تعبير الكاتب فإن المستشرق الوحيد الذي يضاهي فلهاوزن في التأثير على الكتابة التاريخية العربية الحديثة هو كارل بوركلمان، وهو مستشرق ألماني اشتهر بكتابه بالعمق والشمول والموضوعية، وله أعمال عديدة جداً أهمها تحقيق رسالة في لحن العامة للكسائي، وتأليفه لكتاب «تاريخ الشعوب العربية» وكتاب «تاريخ الأدب العربي» وتميز هذا الأخير بالإتقان من ناحية الترتيب الزمني لما ورد فيه وغوصه في الأدب العربي وسعة التبحر فيه. تمت ترجمة كتابه «تاريخ الشعوب العربية» كاملاً، وتميز بالإيجاز والشمول، بينما لم تكتمل ترجمة كتابه الآخر. أفادت بعض كتابات المستشرقين من أمثال إغنتس غولديزير الذي ينتمي لأسرة يهودية، أفادت كتاباته في تقسيم اتجاهات تفسير القرآن إلى أجزاء مختلفة كالتفسير بالمأثور والتفسير الصوفي والباطني، والتفسير الفيلولوجي أي التفسير

وسيطرة الإنجليزية والفرنسية. من وجهة نظري أن الشرق يحتاج لتغيير نظرته للاستشراق في سبيل الاستفادة منه، وقد يتوجب على الراغب بالاطلاع على أعمال المستشرقين الألمان تعلم اللغة الألمانية ليتمكن من الاطلاع عليها. وعلى الرغم من وجود جهات تعنى بالترجمة عن الألمانية، إلا أنها قد لا تكفي لمواكبة الإنتاج الألماني، ناهيك عن أن كثيراً من تلك الأعمال أصبح قديماً وغير ممكن الاستفادة منه.

يطرح الكاتب مفهوم الاستشراق الجديد الذي تسوده نزعة مراجعة تفكيكية على غرار الاستشراق التاريخي والفيلولوجي، والمؤسف حقاً هو انحسار هذا كله مقابل الأصوات المنادية بصراع الحضارات ومن كلا الطرفين العربي والغربي. يمكن للاستشراق أن يساعد في الحوار العربي الغربي، حيث يبرز الحضارة العربية وإنتاجها، ويوضح أنها أمة جديرة بأن تكون شريكا في بناء العالم وتمحو تلك الصورة المشوهة عن المسلمين.

بات واضحاً مفهوم الاستشراق الحقيقي، وتأثير المستشرقين عموماً والألمان خصوصاً على الصورة المرسومة عن العرب والمسلمين. وقد يكون السبيل الوحيد لتعزيز الاطلاع العربي على الأعمال الاستشراقية الألمانية الجديدة هي الترجمة المواكبة للإنتاج الاستشراقي. إن الاستشراق ليس شراً مطلقاً، بل هو خير إذا ما تمت معاملته بموضوعية وإنصاف.

المعنى باللغة. وأبرز كتابين هنا هما «العقيدة والشريعة في الإسلام» و«مذاهب التفسير القرآني». من الواضح هنا كيف أن كتب إغنتس دعمت ودلت على أجزاء التفسير القرآني، مما ينصب في مصلحة الدارسين في حقل التفسير القرآني، وربما أيضاً الفقهاء والباحثين في المذاهب، بل حتى الباحثين في علم الأديان المقارن.

لا تقتصر الدراسات الاستشراقية على المواضيع المذكورة آنفاً فقط، بل تصل حتى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها، ويبرز هنا اسم الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي الذي ترجم الكثير من أعمال المستشرقين والفلاسفة والمفكرين الألمان. ويمكن القول بأنه من الضروري بالنسبة للمستشرقين دراسة الفلسفة الإسلامية لأنها كانت من أهم ملامح الحضارة العربية، فلا يمكن فهم ودراسة الشرق إلا بفهم ودراسة الإنتاج الفلسفي في تلك المنطقة. حيث إن الفلسفة الإسلامية تعتبر فلسفة عميقة وفاعلة، واشتغل بها العديد من الفلاسفة كابن سينا وابن رشد الذين أسهموا في خلق طيف واسع من الأفكار داخل الفلسفة الإسلامية.

يتحدث الكاتب في الجزء الأخير من المقال عما يظن أنه السبب وراء ضعف تأثير أعمال المستشرقين الألمان في الوقت الحالي، حيث يعزو ذلك إلى عدة عوامل، أهمها التنكر والرفض والقطيعة التي يقوم بها البعض لكل ما هو غربي، وقلة الترجمات عن الألمانية